Iraq Academic Scientific Journals

University of Baghdad College of Mass Communication

Vol (12) | Issue (50) Year (2020) | Pages (102-113)

ISSN: 2617-9318 (Online)
ISSN: 1995-8005 (Print)

Article history:
Received: 04 /07/2019
Accepted: 04 /08/2019
Available Online: 24/11/2019

Prof . Dr. Nasseraddin Lyadhi

Qualitative Researches in Media and Communication Sciences: Theoretical Highlights and Applied Pathways

The debate on the methodology of media and communication research is no longer subject to the logic of the contradiction between the quantitative and the qualitative approach, nor the logic of the comparison between them. The nature of the topics presented for research, the problems they raise, the goals to be achieved from the research, and the epistemological positioning of researchers are among the critical factors that dictate the appropriate approach or methodological approaches to conduct their research. This positioning means the implicit philosophical principles upon which any researcher relies and which determine the path he/ she takes to produce scientifically approved knowledge. The method of the researcher's access to the phenomenon considered and the aim of its study are what controls his/ her epistemological position.

Therefore, it can be said that we reduce the debate concerning the methodology of scientific research if we limit the difference between the quantitative and qualitative approach to saying that the first depends on numbers and the second depends on words. The difference between them is philosophical and epistemological.

If we are satisfied that the qualitative research allows for a comprehensive understanding of phenomena and delves deep into the analysis of social data; and that quantitative research is a form of scrutiny of the surface of social facts, then defining the specificity of qualitative research requires approaching more of its philosophical and epistemological framework

Keywords:
- Qualitative Research
- Communication
- Epistemology

Available Online: http://abaa.uobaghdad.edu.iq/

Prof . Nasseraddin Lyadhi, Faculty of Information and Communication Sciences,University of Algiers

أ.د. نصر الدين لعياضي

المستخلص

البحوث الكيفية في علوم الإعلام والإتصال:
إضاءات نظرية ومسالك تطبيقية

لم يعدّ النقاش في منهجية بحوث الإعلام والاتصال يخضع لمنطق التناقض بين المقاربة الكميّة والكيفيّة ولا لمنطق المفاضلة بينهما. فطبيعة المواضيع المطروحة للبحث، والإشكاليات التي تثيرها والأهداف المرجو تحقيقها من البحث، والتموقع الابستمولوجي للباحثين، تعد من العوامل الحاسمة التي تملي عليهم المقاربة أو المقاربات المنهجية المناسبة لإجراء بحوثهم. ويقصد بهذا التموقع المنطلقات الفلسفيّة الضمنيّة التي يعتمد عليها أي باحث والتي تحدّد المسلك الذي يسلكه لإنتاج المعرفة المعتمدة علميا. فطريقة ولوج الباحث الظاهرة المدروسة والهدف من دراستها هي التي تضبط تموقعه الابستمولوجي. لذا يمكن القول إننا نختزل النقاش عن منهجية البحث العلمي إن حصرنا الاختلاف بين المقاربة الكميّة والكيفيّة في القول إنّ الأولى تعتمد على الأرقام والاخرى تعتمد على الكلمات. إن الاختلاف بينهما فلسفي وابستمولوجي. وان اكتفينا بالتأكيد على أن البحث الكيفي يسمح بالإحاطة الشاملة بالظواهر ويغوص في عمق تحليل المعطيات الاجتماعيَّة، وأن البحث الكمي يعّد شكلا من التدقيق في سطح الحقائق الاجتماعيَّة. فتحديد خصوصية البحث الكيفي يتطلب الاقتراب أكثر من إطاره الفلسفي والابستمولوجي.

الكلمات المفتاحية :

- **البحوث الكيفية**
- **الاتصال**
- **ابستمولوجي**

Available Online: http://abaa.uobaghdad.edu.iq/

أ.د. نصر الدين لعياضي ، كلية علوم الاعلام والاتصال-جامعة الجزائر

البحوث الكيفية في علوم الإعلام والإتصال:
إضاءات نظرية ومسالك تطبيقية

المقدمة Introduction

تَنطلق البحوث الكمية من البراديغم « Paradigm» الوضعي الذي يرى أن الحقيقة الاجتماعيَّة لا توجد سوى في حالتها الملموسة والمستقلة عن كُلّ رأي أو موقف، وتَنْتَظر أن تُستطلع وتُكْتشف. ويُنظر إليها على أساس إنها ذات بُنية مغلقة تتشكّل من عناصر قابلة للقياس مثلما ذهب إليه ألكس ميتشلي Mucchielli Alex 2004 ((. بينما تخضع البحوث الكيفية أكثر لمتطلبات» براديغم» Paradigm البنائية الاجتماعيَّة الذي يسمح ببناء سياقات لوصف الظواهر الاجتماعيَّة والثقافية. ولا يراها في وضعها المنجز وصيغتها النهائية، بل في طور بنائها وتشكّلها. إنها تهتم بالمعنى المستخلص من سياق الظاهرة المدروسة، ومن الدلالات التي يمنحها الأشخاص لأفعالهم. لذا تعتمد البحوث الكيفيّة على تأويل البيانات. وتأخذ بعين الاعتبار العنصر الذاتي في مسار البحث. فالبحث الكيفي يعتمد على التحليل الاستقرائي في قراءة البيانات التي يجمعها بينما التحليل الكمي يعتمد على التحليل الاستنباطي.

يرى الباحث هرفي دومز Hervé Dumez , pp.47-58)2011 (أن المقاربة الكيفيّة تركز على الفاعلين في الظواهر المدروسة وليس على المتغيرات؛ أي خلافا للمقاربة الكمية التي تهتم بالمتغيرات ولا يظهر الفاعلون إلا عندما تعجز المتغيرات عن تفسير الظاهرة.

حصر الباحثان برنار فالي وبيرت ماسي (Vallée, Massé, 1992, p 37-38) الاختلاف بين المقاربتين الكميّة والكيفيّة في العناصر التَّالية: غائية البحث، وأدوات البحث والقياس، والموضوعية، والعلاقة بين القيم والأحداث.

غائية البحث: تكمن غاية البحوث الكميّة في المعرفة عبر شرح الظواهر وتفسيرها واستجلاء القوانين التي تسمح بالتنبؤ بوقوعها. ويتم تعميم هذه المعرفة، بينما تستكثر البحوث الكيفيّة هذا الهدف وتكتفي بالنظر إلى المعرفة كمفهوم نسبي وإشكالي. وتؤكد أن غاية البحث تكمن في إدراك كيفية المعرفة، وليس بلوغ المعرفة ذاتها؛ بمعنى أنها تسعى إلى فهم الظواهر واستعراض أشكال استيعابها عبر عملية التأويل التي تحدثنا عنها أعلاه.

الموضوعية: اقترنت مسألة الموضوعية بالتمييز بين ما هو أنطولوجي وما هو ابستمولوجي، مثلما تؤكد الصحافية الكندية مارتن ستيفاني(Martin ,2003, 163-144 p). فـ « البراديغم» Paradigm الوضعي يحصرها في الجانب الأنطلوجي فقط. واستطاع أن يرسخ تصورا لموضوعية المعرفة بالاستناد إلى المعطيات الإحصائية، فجعلها حكرا على البحوث الكميّة. فصرامة المعالجة الكمية للبيانات والمعطيات في نظر هذا البراديغم تمنحها طابعا «موضوعيا»، وتجعلها في منأى عن التلاعب، وبعيدة عن ذاتية الباحث.

لقد بُني هذا التصور على فكرة أن الباحث في العلوم الاجتماعيَّة يجب أن يحافظ على هامش يفصله عن موضوع بحثه، ولا ينغمس في الأوضاع الملاحظة التي تجره إلى التحيز والذاتية. فموضوع البحث، من هذا المنظور، ليس مسرحا لأنشطة الباحث،

بل يظل مجالا لملاحظاته فقط. فكلّما نأى الباحث عن موضوع بحثه كان موضوعيّا وإن اندمج فيه أصبح ذاتيّا. لا يصمد هذا الحكم أمام الحقائق العلميّة المعاصرة. فالبحث عن الظاهرة الاتِّصالية من داخلها أو ما أصبح يعرف « بالتجربة المعيشة» ، تحولت إلى مفهوم مركزي في الكثير من البحوث التي ارتبطت « بالميديا الجديدة» التي تستند بدرجة أساسية إلى أطروحة هابرماس Habermas (1987) المتعلقة بـ« العقل التواصلي» الذي يهتم بما بين الذّاتيات. فمن منظور الباحثان مارتا أنادون (Marta Anadón) و فرنسوا غيلمات (Guillemette François (2007) (لا تعتبر المنهجية الكيفيّة، الحقائق الذّاتيّة وما بين الذّاتيات كمواضيع للمعرفة العلمية فحسب، بل تعدّها أدوات بحث أيضا. إذ تميز بين « الواقع الأمبريقي» من جهة، ومعرفة هذا الواقع، من جهة أخرى، والذي تسميه « الواقع الابستمولوجي» والذي يمكن النفاذ من خلاله إلى الواقع الأمبريقي. فإذا كان هذا الأخير يستطيع أن يملك وجودا مستقلا عن الباحث، فلا وجود للواقع الابستمولوجي دون الباحث غير المستقل عن الثقافة والعلاقات الاجتماعيَّة . وبهذا يكون الواقع الابستمولوجي مرهونا بشروط إنتاجه وسياقاته التاريخيّة والاجتماعيَّة والثقافية والسِّياسيَّة

يطلق على البحث الكيفي صفة التعاطفي لأنه يتعاطف مع المبحوثين، بمعنى أنه لا ينطلق من تصور جاهز عنهم وعما يفعلون، بل يلتحق بهم، ويشاطرهم ظروفهم وأوضاعهم، ليدرك قيمهم وتمثّلاتهم، والدَّلالات التي يمنحونها لحياتهم الاجتماعيَّة انطلاقا من معتقداتهم وتجاربهم ومرجعياتهم الثقافيّة. فالتعاطف يشكل مدخلا للتجربة المعيشة ويحمل نوعا من المصارحة والمجاهرة التي تؤكد على شفافية الأسلوب ونسبية النتائج التي يمكن أن يصل إليها البحث الكيفي.

إن الموضوعيّة في البحث العلمي لا تعني الحياد لأن المصلحة توجّه المعرفة العلمية التي يعبّر عنها الشخص الذي ينتجها أو تنشدها المؤسسة المكلفة بالبحث مثلما أكد ذلك المفكر الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault) (حياد أداة جمع البيانات.

رسخت البحوث الاجتماعيَّة، خاصة في علوم الإعلام والاتِّصال، فهما محددا لأدوات جمع البيانات وقياسها يؤكد استقلاليتها عما يجب أن تقيسه، مما يمنحها الدقة والعلمية.

انتقد الباحثون الاجتماعيون (Bourdieu, Chamboredon, Passe-ron , 1983, p 53) هذا الفهم معتبرين أن أدوات جمع البيانات والقياس ليست محايدة، فحتّى (المقابلة غير الموجهة تدار بشكل مؤطر بالإشكالية المطروحة التابعة كُلّيا للنَظريَة وللأنموذج وإلى تموقع الباحث إبستمولوجيا. وإذا كان البعض يُعّد الاستبانة أو عملية استطلاع الآراء تقنية محايدة لا تقوم سوى بالتعبير عن الرأي العام فالبعض الآخر يرى عكس ذلك، إذ يعتبر أنهما ينتجان رأيا عاما غير موجود في الواقع الأمبريقي، مثلما بيّن ذلك بيار بورديو Pierre Bourdieu) (1973 في مقاله المرجعي المعنون بـ « الرأي العام لا يوجد». لقد أكد بأن استطلاعات الرأي لا تعبر عن رأي عام قائم بل تعمل على إنتاجه؛ أي أنها لا تعبّر عن « واقع أمبريقي»، بل تفصح عن تصورها لهذا الواقع.

القيم والأحداث: يقتنع الكثير من الباحثين الكميين أن الرؤية إلى الأحداث والواقع لا يخضع لقيم الباحث. وأن هذه الأخيرة لا تؤثر في فهمه لها. بينما يرى الباحثون الكيفيون عكس ذلك. وهذا ما يؤكده المنظر الألماني للأدب هانس روبرت ياوس))نقلا

عن 1997، Kalinowski) الذي يرى أن للباحث أفق اجتماعيّ وتاريخيّ يتواجد فيه ومن خلاله، يملي عليه قراءة البيانات والمعلومات التي يجمعها والمعارف التي يتعامل معها. هذا ما أثبتته الدراسات الثقافيّة) Cultural Studies) في مقاربتها لجمهور وسائل الإعلام إذ تراه شريكا في إنتاج المعنى من المواد الإعلامية والثقافية التي يتلقاها. وشراكته هذه تتكئ على أفق توقعاته.

لقد بيّن الباحثان تمار ليبس (Tamar Liebes) وإلياهو كاتز ((Elihu 1993) Katz) في بحثهما عن المسلسل التلفزيوني الأمريكي « دالاس» كيف قام مشاهدوه بتأويله. واستخلصا ستة تأويلات ، كلاهما نتاج أفق انتظار أو توقع (Ho-rizon of expectation (لكل فئة من المشاهدين وفق أصولها العرقية وخلفيتها الثقافية : اليهود المغاربة، واليهود النازحين حديثا من روسيا إلى إسرائيل ومشاهدين من لوس أنجلس بالولايات المتحدة الأمريكية ومن طوكيو باليابان. وغني عن القول أن القيم تقوم ، بهذا القدر أو ذاك، بدور في تشكيل الأفق المذكور.

إذا إن اختيار المقاربة الكيفية في بحوث الإعلام والاتصال ليست اعتباطية بل تمليها جملة من العوامل منها إشكالية البحث. فإن كانت قائمة على سؤال كيف؟ وماذا؟ فإنها توجه البحث توجيها كيفيا. وكذلك الهدف من إنجاز البحث، والحاجة لدراسة الأشخاص في محيطهم الطبيعي. فسحب المبحوثين من بيتهم الطبيعية لدراسة سلوكهم وممارستهم ومواقفهم يؤدي إلى نتائج قد تكون غير دقيقة لكونها استنتجت من خارج سياق وجودهم و بمنأى عن تصرفهم اليومي.

إن التوجه المتزايد للبحوث الكيفية يوحي للكثير من الدارسين أنها حديثة الاستخدام في علوم الإعلام والاتصال، بينما المراجعة التاريخية لبحوث الصحافة تؤكد عكس ذلك. فالآباء المؤسسون لعلم الاجتماع لم يستبعدوا المقاربة الكيفية في دراستهم للصحافة. لقد استفاد ماكس ويبر (Max Weber) من تقنيات البحث الكيفي في البحث الميداني الذي أشرف عليه في 1910 والمتعلق بالصحافة والصحافيين. ودرس فيه دور الصحافة في تشكيل الثقافة المعاصرة. و استطاع روبرت بارك) Robert Park)، أحد المساهمين النشطين في مدرسة شيكاغو الذي درس علم الاجتماع في ألمانيا ومارس الصحافة في الولايات المتحدة الأمريكية، أن يبيّن بفضل المقاربة الكيفية أن دور الأخبار الصحفية في ألمانيا يختلف عن دورها في مدينة شيكاغو في 1922. ففي هذه المدينة لا تقوم بجمع المعلومات وتوزيعها فحسب، بل تعمل على دمج الأقليات العرقية والمهاجرين في المجتمع وتنشئتهم اجتماعيا.

حاولت عالمة الاجتماع الأمريكية غاي تشمان ,Tuchman 2002) (p84 أن تبيّن ما يميز البحوث الكيفيّة في علوم الإعلام والاتصال فحصرتها في النقاط التالية:

١- التعامل مع وسائل الإعلام كمؤسسات في غاية التعقيد ليس على الصعيد التنظيمي فقط، بل على الصعيد الاقتصادي والسياسي والثقافي والمهني أيضا.

٢- معالجة لغة الإعلام التي تسعى إلى تعزيز التأويل الرسمي للأحداث التي تثير الجدل.

٣- كيف تصل وسائل الإعلام إلى « معرفة» ما « تعرفه» عن الأحداث والآراء والمواقف؟

يدرك جلّ الدارسين أن البحث الكيفي يوظف جملة متنوعة من الأدوات لجمع البيانات والتي تندرج ضمن استراتيجيات البحث، مثل المجموعة البؤرية أو المركزة

Focus group، والمقابلة المعمقة، وسيرة حياة Life-history، والتوصيف المعمق) hick description (، المواجهة الذاتية(self-confrontation) ، والملاحظة بالمشاركة.

ازداد التوجه إلى هذا النوع من الملاحظة لدراسة الميديا الرقمية بعد تبيان حدود الاستبانة والمقابلة لدى بعض الباحثين في مجال علوم الإعلام والاتصال وحتى التوجس من جدواها. فالباحث دفيد ريف الذي درس أداء الصحافيين في الصحافة الرقميّة أشار إلى خطورة الاكتفاء بما يقوله الصحافيون عما يقومون به.(فغياب الملاحظة المباشرة للأداء الصحفي له تأثير خطير: فالجامعيون نادرا ما يلاحظون الفرص المتاحة للصحافيين والتفاوض الذي يجرونه حول اختياراتهم. وهذا الأمر مقلق في الظرف الذي يسري التشكيك في الكثير من الحقائق في مجال الصحافة (Ryfe 2017,).

ورغم اقراره بأن المقابلات تعد أداة ملائمة لجمع البيانات وتحليل التصريحات التي يدلي بها المبحوثون عن علاقتهم بصحافة الانترنت إلا أن الباحث لوسوني Le Saulnier (2013) يعترض على فكرة أن هذه المقابلات تمنح امكانية معرفة « واقع» هذه العلاقة عينه. ويذكّر بأن المقابلات تقدم تقريرا عن ممارسة اجتماعية، ولا تسترجع واقع هذه الممارسة الفعلي. إن هذا الأمر لا يدعونا بتاتا إلى الاستغناء عن المقابلة في البحوث الكيفية. فالملاحظة بالمشاركة تستلزم إجراء المقابلات في ميدان البحث للاستفسار عن السلوك أو التصرف أو الألفاظ أو الرموز التي تستعصي على الباحث فهمها بعد أن لاحظها في ميدان بحثه. ولعل ما سبق عرضه ينبهنا إلى التأكيد على الفرق بين مواقف الأشخاص وسلوكهم رغم تفاعلهما وعلى كيفية الوصول إلى تشخيصهما. فمعرفة المواقف تتطلب إجراء المقابلات بينما رصد السلوك يستلزم الملاحظة العلمية. ولعلنا نستطيع أن نفهم المفارقة التي قد تحدث بين اقتناعات الأفراد وسلوكهم اليومي باستخدام الأداتين.

وتقوم البحوث النوعية على دارسة حالة Case study التي تسمح بفهم وضع ملموس في حالته المنفردة والمختلفة وفي سياق تطوره، مما يبعد البحث عن السقوط في التعميم. وقد برهن هذا النوع من الدراسات على فاعليته في البحث في مجال الصحافة الرقميّة، وذلك لأن مستوى تطور هذه الأخيرة لا يسير على ايقاع واحد في مختلف البلدان وأنّ الممارسة الصحفية تختلف من سياق ثقافي واجتماعي وسياسي إلى أخر وحتى داخل البلد الواحد. وقد استعرض الباحثان جفياز دياز نوسي، و ماركوز بلسيو (Palacios, Díaz Noci, 2007, p108) بعض دراسات الحالة الرائدة لفهم مسار المواءمة Convergence في قاعات تحرير الصحف والقنوات التلفزيونية الإسبانية ليؤكدا أن تجربة الصحافة الرقمية ليست موحدة ونمطية في استيعابها لظاهرة المواءمة وتجسيدها في الواقع العملي.

قد نجانب الصواب إن فصلنا هذه الأدوات والاستراتيجيات عن الإطار النظري الذي تستند إليه. فاستخدامها بدون تبصر نظري قد يضبب الرؤية للحقائق العلمية ويسقط مستخدميها في النزعة التبريرية للممارسات الإعلامية دون تفسيرها واستخلاص دلالتها. لذا نلاحظ أن المراجع الجادة في المنهجية تربط تدريس المناهج بالنظريات. فالدرس المنهجي ليس عبارة عن جملة من التوصيات التقنيّة، بل يبنى على استجلاء العلاقة الصريحة أو المتلبدة بين النظرية أو النظريات وإشكاليات البحث وفروضه وتساؤلاته وأهدافه. فلم يعد جمع البيانات الهدف الأساسي في البحث الإعلامي المعاصر.

فالكثير منها اصبح متوفرا في شبكة الانترنت ومختلف المنصات الرقمية، ومحركات البحث المتخصصة والشاملة. وأضحى المطلوب من الباحث محصها و تحليلها وتسييقها وتأويلها. وهذا ما ترومه المقاربات الكيفيّة التي ترتبط أكثر ببعض النظريات المتناسلة من البراديغم البنائي والتفهمي.

استثمرت البحوث الكيفيّة النظريات السيمائية بدءًا من ستينات القرن الماضي من أجل الكشف عن تشكيل البنى الحاملة للمعاني المتسترة في مادة الاتصال، ولعل أبرز مثال على ذلك التحليل المرجعي الذي قام بها رولان بارث للصورة الاشهارية « للمعكرونة» التي انتجتها شركة بنزاني . والأعمال الرائدة للسيميائي الفرنسي « كرسيان ماتس» METZ, Christian التي أسست لما أصبح يعرف بسيمياء السينما وفتحت أفاقا واسعة للتنظير للغة التلفزيونيّة كما تتجلى في نشرات الأخبار ومختلف البرامج التلفزيونيّة.

لقد استطاعت النظريات السيمائية تجاوز النقد الموجه لها لكونها تتحدث باسم الغائب؛ أي الجمهور، إلا أنها استطاعت أن تتجاوز حدودها الكلاسيكية بفضل البحوث الكيفية التي ساعدتها على الاستماع إلى قراءات الجمهور للعلامات والرموز الكامنة في النصوص في إطار ما أصبح يعرف بحرب العصابات السيمائية أو السيمياء التداولية. وهذا ما حققه رواد مدرسة الدراسات الثقافيّة، مثل ريتشارد هوغارت (Richard Hoggart (و إدوارد طومبسون) Edward Thompson (وريموند وليامز) Raymond Williams (و ستيوارت هول) (Stuart Hall الذين عملوا على الكشف عن إسهام الجمهور في قراءة المنتجات الثقافية. وطورت البحوث الكيفية استراتيجياتها بفضل جهود أصحاب نظرية التلقي، مثل دافيد مورلي David Morley وروجر سلفستون (Roger Silverstone) وميشال دو سيرتو (Michel De Certeau (وجانيس رادوي) Janice Radway (، وجون فيسك) John Fiske (وغيرهم الذين اهتموا بدور الجمهور النشيط في التفاوض مع المنتجات الإعلامية والثقافية والاستراتيجيات التي يتبناها في تأويل رموزها ومعانيها.

ويؤكد الباحثون (Díaz Noci,، Aguado، Juan، Edo Bolós,، Ig-lesias، Larrondo Ureta، López García,، Meso Ayerdi، 2007) أن أطروحات كل من بروب Propp ، وتودروف Todorov وجينت Genette و غيرماس Greimas ، وبارث Barthes ، ومران Morin، و إيكو Eco لازالت فاعلة في دراسة « الشبكة السيمائية» « Semantic Network، وقراءة السرديات الرقمية، خاصة النص المتشعب Hypertex في الصحافة الرقمية من أجل اكتشاف البنى الخفية / القواعد التي تنظم الوحدات المترابطة في هذا النص وتمنحها معنى.

وطبقت البحوث الكيفية في دراسة الخطاب الصحفي في ثمانيات القرن الماضي. فلم تعكف على الكشف عن مقاصد مؤلفه، ولا الوصول إلى الحقيقة التي يعبر عنها، بل للبحث عن حقيقته من خلال ابراز المنطق الذي يستند إليه و طرق إنجازه.

واتكأت المقاربات الكيفيّة في مجال الإعلام على نظريات الفعل الاجتماعي التي تولي قدرا أكبر من الأهمية لدور الفعل والتفاعل بين أعضاء المجتمع في تكوين البنى الاجتماعية (غدنز، 2005 ، ص 76) وتطورت في ظل تزايد البحوث التي درست الإعلام الرقمي استنادا إلى نظرية الفعل والشبكة Actor, Network, The-

ory لفهم تطور الممارسة الإعلامية داخل قاعات التحرير المختلفة، ولفهم دور التكنولوجيا باعتبارها صانعة الفعل Actant وكشف حدودها في إقامة العلاقة بالفعل والفاعل والمُنْتج والمتلقي. إن هذه النظرية تذكّرنا بأن (الفعل يكتسب معناه في سياق الممارسة، ففي خضمها يصبح الفرد فاعلا. ولا يتوقف وجود الممارسات على أفعال فرد مخصوص. فقبل الأفعال الفردية توجد أشكال سابقة من المعارف التطبيقية والفهم المشترك لما يجب فعله وقوله) M Ryfe. D , 2017)).

وارتكزت البحوث الكيفية في المجال الإعلامي أيضا على الدراسات الاثنوغرافية التي اهتمت بنشاطات قاعات التحرير ومنتجي مادتها الإعلامية، وبمتلقيها من الجمهور. ورغم أن هذه الدراسات وظفت أدوات البحث التقليدية التى رسختها البحوث الانتربولوجية إلا أنها كيفتها مع متطلبات البحث عبر شبكة الانترنت ومن خلالها تحت عنوان « الإثنوغرافيا الرقمية « Digital Ethnography - ومن الدراسات البارزة في هذا المجال نقتصر على ذكر إثنين فقط من باب الحصر وليس التفضيل، الأولى تتعلق بتلك التي أجريت على الصحيفة الهولندية : فولكس كرانت» -Volksk rant De» صحيفة الشعب» والتي كشفت عن استراتيجيا تفكيك عملية المواءمة De-convergence داخل قاعة تحرير هذه الصحيفة في ظل التوجه الواسع نحو تعدّدية المهام والخدمات والمنتجات في الصناعات الإعلامية التي تبثّ/ تنشر عبر أكثر من حامل. إنّها الاستراتيجيا التي تعبر عن الاخفاق في بناء قاعة تحرير منتجة لمادة واحدة للنسختين : الورقية والرقمية ولمختلف المنصات في شبكة الانترنت. وبالتالي الإبقاء على الأدوار التقليدية لصحافيي الطبعة الورقية. (Broersma. , 2013 Tameling). إن أهمية هذه الدراسة تنبع من شبه الاجماع على أن المواءمة في قاعات التحرير الصحفي المعاصرة بلغت مرحلة حاسمة من التطور ولا يمكن التراجع عنها.

والدراسة الثانية تناولت موضوع المواءمة أيضا لكن في قاعات المحطات الجهوية لإذاعة البي بي بي BBC البريطانية. لقد استمرت لمدة ثلاث سنوات تابعت خلالها تطور العمل الصحفي في الإذاعة مستعينة بالعديد من المقابلات مع رؤوساء التحرير والصحافيين لتستنتج بأن تحقيق المواءمة convergence ليست غاية يجب بلوغها كما يعتقد البعض، بل إنها مجرد أداة استخدام في سياق تقليص كلفة الانتاج الإعلامي. فالهاجس الاقتصادي هو الذي انتج مختلف الأشكال ذات الوسائط المتعددة للبثّ عبر العديد من المنصات لمختلف فئات الجمهور. (,Wallace 2003). وتكمن أهمية هذه الدراسة الاثنوغرافية في كونها أبرزت العامل الاقتصادي الذي ظل غائبا، بهذا القدر أو ذاك، في الحديث عن تطبيقات تكنولوجيا في العمل الصحفي.

وتطورت البحوث الكيفية في علوم الإعلام والاتصال في ظل توجهها نحو النظرية المتجذرة Underground Theory والتي تعرف بأنها طريقة من البحث الاستقرائي والتي تهدف إلى توليد نظرية انطلاقا من البيانات المستقاة من أرض الميدان بدل اللجوء إلى تحليل البيانات استنادا إلى نظرية جاهزة) 1993, Strauss ,p12 (. وبهذا فإنها تتموقع ابستمولوجيا بشكل يعارض أطروحة الفرضية الاستنباطية (hypothetico-deductive). وهذا يعني أن الباحث مستخدم هذه النظرية لا ينطلق من فرضيات ليسعى إلى اثباتها أو دحضها، بل يستسلم إلى سؤاله البحثي الذي يقوده. وينضج هذا السؤال كلما توغل في ميدان البحث ليصحح مساره. ويمكن أن

نشير في هذا المقام إلى السؤالين اللذين قادا بحث الموسوم : Making News by doing Work: Routinizing the Unexpected الذي انجزته الباحثة غي توشمان 2016(Tuchman (.

السؤال الأول: كيف تستطيع المنظمة – يقصد بها المؤسسة الإعلامية- أن تعالج بطريقة روتينية الأحداث غير المتوقعة؟ والسؤال الثاني: كيف يقوم صحافيو الأخبار بتقليص حجم التغيرات في الأحداث التي تشكل المادة الأولية للأخبار؟ لقد نبع هذان السؤالان من الملاحظة التي مفادها أن التغيير في المادة الأولية للأخبار يحول دون روتينيتها من جهة، ومن جهة أخرى فإن المنظمة/ المؤسسة الإعلامية تفرض بروتوكولا روتينيا على الصحافيين من أجل مراقبة تدفق الإنتاج الصحفي.

لقد اختارت الباحثة قناة تلفزيونية محلية مستقلة وصحيفة صباحية توزع 250 ألف نسخة يوميا في مدينة أمريكية- لم تحددها- تشكل سوقا تلفزيونيا كبيرا. واستغرق بحثها ما يزيد عن سنتين بقليل، قامت خلالهما بملاحظة العمل الصحفي في قاعتي التحرير، ومرافقة الصحافيين في انتقالهما لاستقاء الأخبار ومتابعة الأحداث، والاستماع إلى حديثهما طيلة مسار إنتاج موادهم الإعلامية. وأجرت معهم مقابلات نصف مقننة بشكل منتظم سمحت لها بجمع البيانات المتعلقة بالاختيار ذات الصلة بالأحداث التي يغطونها وتلك التي يتجنبون تغطيتها ولا يعتبرونها أحداثا صحفية، وبطريقة معالجتهم لبعض للريبورتاجات خاصة تلك التي تابعت مسار إنتاجها. وطالبت من الصحافيين تحدّيد العبارات والمصطلحات التي يستعملونها من أجل فهم دلالات الكلمات التي كانت تسمعها حتى تكون ملاحظاتها دقيقة. وقد كشفت للصحفيين هويتها الحقيقية كباحثة.

وقبل الشروع في تحليل البيانات والمعلومات التي جمعتها قامت الباحثة بتصنيف المنْتَج الصحفي في قاعتي التحرير إلى الأنماط التالية: الأخبار الرصينة « hard news » والأخبار الخفيفة أو المنوعات « soft news »، والأخبار الخاطفة أو أخبار أخر دقيقة « spot news » ، وأخبار عرضة للتطور « develop-ing news » ، وتلك التي تتابع المواضيع والقضايا» « continuing news «

وبفضل ما جمعته من بيانات استطاعت الباحثة الوصول إلى النتيجتين التاليتين:

١- لا يقوم الصحافيون بمختلف فئاتهم وتخصصاتهم المتنوعة بتقليص حجم التغييرات في الأحداث باعتبارها مادة أولية لصناعة الإعلام، بل إن تنميط العمل الصحفي وفق الأنماط المذكورة هو الذي يفعل ذلك. فالتنميط الذي يقوم به الصحافيون للأخبار وفق القوالب المذكورة يدعو إلى التفكير في الأخبار ضمن مسعى إعادة تشكيل للعالم الاعتيادي والمألوف.

٢- تتفاعل المؤسسات والجماعات والأشخاص مع الأحداث ليس بإدراج ما جرى ضمن أنماط معينة فحسب، بل ايضا مع الكيفية التي جرت بها. فالأهم هو -الطريقة التي يمكن أن تدار بها الأحداث، فتُحَور، وتُطرح في أفق مستقبلي من وجهة نظر عملية.

أخيرا، إن ما سبق عرضه لا يعد مرافعة لصالح الاستعانة بالمقاربات الكيفية في البحث دون سائر المقاربات ، بل إنه مجرد تذكير بأهمية هذه المقاربات التي تغوص في عمق الظواهر الإعلامية والاتصالية وتدفع إلى معايشة الواقع الملموس وتنأى بالبحث عن التعميم الذي يتعامل مع بعض المسلمات كحقائق علمية دون أن مساءلتها. إنها المسلمات ذاتها التي تجعل البحث ينطلق من الخصائص التقنية التي تتمتع بها العدّة

التكنولوجية ويستخلص منها نتائج ويفرضها على الواقع أو ينزّل، بشكل تعسفي، على هذا الواقع نتائج بحوث جرت في بيئات إعلامية وثقافية مختلفة وفي وسط اقتصادي واجتماعي وسياسي مغاير تماما.

إنّ ضخامة البيانات المتوفرة للدراسة، وكبر حجم العينات في البحوث التي تدرس « الميديا الرقميّة» أصبحت تتطلب عدة منهجية متقدمة مثل تلك التي يوفرها المنهج الرقمي Digital Method الذي يقدم بيانات ليست في متناول المقاربات الكيفية فيكملها ويثريها.

إن التغيير المتسارع في سياقات الممارسة الإعلامية، والتجدّيد المتواصل في عُدّتها التقنيّة، و تعدّد منتجي الإعلام، واختلاف حوامل الإعلام والاتصال ، وتنوع أنماط الاستهلاك الإعلامي، وتداخل الإعلام والترفيه، كلها عوامل زادت في تعقد هذه الممارسة في ظل تراجع درجة اليقين في السرديات السالفة التي رافقت تطور وسائل الإعلام. ففي ظل هذا الواقع أصبح التثليث Triangulation مطلبا ملحا في البحث العلمي في مجال الإعلام والاتصال.

المراجع:

- غدنز أ) ٢٠٠٥ (: علم الاجتماع مع مدخلات عربية، ترجمة فائز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الرابعة، لبنان.
- Anadón. M; Guillemette. F):20000(La recherche qualitative est-elle nécessairement inductive? Revue Recherches qualitatives– Hors Série 5
- Bourdieu P) 1973(: l›opinion n›existe pas, Les temps moderenes, Janvier
- Bourdieu. P, Chamboredon. J-C, Passeron. J-C) 1983 (: Le métier de sociologue, mouton, Paris.
- Díaz Noci. J ,، Aguad.T, Juan M, Edo Bolós. .C … Meso Ayerdi. K (2007): Journalisme numérique: théorie, méthodologie et critères d›analyse. International Association for Media & Communication Research (IAMCR) at UNESCO

Paris – 23-25 Juillet

- Dumez H.) 2011 (:Qu›est-ce que la recherche qualitative ?- Le Libellio d›Aegis, , 7 (4 - Hiver)
- Habermas, J. (1987). Théorie de l›agir communicationnel. Paris : Fayard.
- Kalinowski. I) 1997 (« Hans-Robert Jauss et l'esthétique de la réception », Revue germanique internation-

ale n 8.
- Le Saulnier.G (2013(:La lecture de la presse en ligne. L›appropriation des contenus d›actualité au défi de la technique; retrieved Mayo; 11, 2020 from https://cutt.ly/Wgpjzyd
- Liebes T, Katz. E)1993(: Six interprétations de la série « Dallas» traduit de l›anglais par Maigret.E; Dayan.D; revue Hermès; Editions .CNRS; France; N0 1
- Martin.S (2003): Vérité et objectivité journalistique: même contestation? Les cahiers du journalisme; n 13-printemps;
- Massé. P, Vallé. B) 1992 (: Méthodes de collecte et d'analyse de données en communication, Canada, éd Presse de l'université de Québec ; Canada;;
- Mucchielli. A) 2004) Le développement des méthodes qualitatives et l'approche constructiviste des phénomènes humains; Revue Recherches qualitatives – Hors-Série – Numéro 1- Actes du colloque Revue Recherches qualitatives et production de savoirs.
- M Ryfe. D (2017): A practice approach to the study of news production, Journalism 19(4): March
- Palacios. M, Díaz Noci.J)2007 (Online journalism: research methods. A multidisciplinary approach in comparative perspective, Bilbao: Servicio Editorial de la Universidad del País Vasco, Spain
- Strauss A L (1993) : quantitative analysis for social Scientifics ; USA; Cambridge university press,
- Tameling K , Broersma M (2013) : De-converging the newsroom Strategies for newsroom change and their influence on journalism practice, International , DOI: 10.1177/1748048512461760
- Tuchman. G (2016): «Making News by doing Work: Routinizing the Unexpected». Translated by Keda Black under the title: « Travailler à la fabrique de l'information, ou comment l'imprévu devient une routine» . Les temporalités , Revue des sciences humaines et

sociales; France; october; n023
- Tuchman. G (2002) Media institutions Qualitative methods in the study of news in Klaus Bruhn Jensen and Nicholas W.Jankowski: A Handbook of Qualitative Methodologies for Mass Communication Research – Routledge, USA
- Wallace. S (2003) The complexities of convergence: Multi skilled journalists working in BBC regional multimedia newsrooms - international communication gazette, Volume: 75 issue: 1

الهوامش والاحالات:

- أقتبس جزء من هذا المقال العلمي من دراسة بعنوان :»علوم الاعلام والاتصال : من التفكير في المنهج إلى التفكير في المنهجية، الذي نشره الكاتب في الكتاب الجماعي: «التفكير في منهجية دراسة الإعلام والاتصال في المجتمع الجزائري: التموقعات الابستمولوجية والتقاطعات المعرفية، من إصدار مخبر استخدامات وتلقي المنتجات الثقافية في الجزائر، جامعة الجزائر، دون تاريخ.
- لا تكتفي هذه التقنية بوصف سلوك الأشخاص في وضعيات معينة ومواقف محددة، بل تصف سياق هذا السلوك ويساعد هذا التوصيف الباحث في رصد المعاني الشخصية التي يقدمها الأشخاص لسلوكه مما يمنح معنى للبيانات التي يجمعها الباحث عن الفاعل ودلالات سلوكه. أنظر:

Liav Sade-Beck (2004) Internet Ethnography: Online and Offline, International Journal of Qualitative Methods 3 (2) June

- استخدامها المختصون في الأرغونوميا Ergonomists تقوم على التسجيل الفيديو لأوضاع وأنشطة متنوعة وعرضها على فاعليها لشرحها وتفسيرها. وتسمح هذه التقنية بالكشف عن تدخل السياق في توليد المعنى. وقد تطورت في ظل الدراسات المهتمة بالإعلام الرقمي . حيث يقوم الباحث بتثبت برنامج مستشعر الشاشة screen sensor لتسجيل مواقع شبكة الانترنت وصفحات الواب التى يزورها مستخدم الانترنت. وتسمح هذه التقنية بتسهيل متابعة خطابه الدال على ممارسته الرقمية. أنظر: